خليل أحمد خليل

رواية السيرة الخلدونية الأولى

سالم حمّيش

بلغةٍ عربيّةٍ جميلةٍ جليلة، يروي سالم حمّيش، من مقام فلسفة التاريخ، كيف تأرّزَ عبد الرحمن بن خلدون في عصره ـ القرن الرابع عشر ـ متّخذاً عمره وزمانَه صَبْغَةً لتاريخيّته، ومصنعاً للكتابة الحديثة، المَعيشةِ، المُنغّمة على إيقاعات العقل العلمي والرُّوح الإسلامي والفؤاد الجسدي الحاملِ دمه على شفرةِ أسياف السلطة. وبعينٍ معاصرةٍ، رثائيّة، خَنْسَائيّة يأخذنا الفيلسوفُ سالم، خلافاً للزّير سالم المقدَّم في مأثورنا من زاوية «بئر النساء»، إلى بئرٍ عصرٍ غابر، مستمرٍّ كأنّه معاصر أكثر من أي عَصْرٍ آخر، بل أكثر من واقعنا ذاته، لنرى كيفَ استطاع علاّمتُنا الخلدونيُّ أن ينفذَ من سمّ خياط السلاطين، متردّداً مدى العمر بين سجونِ السياسة ومساجينِها المحكومين بالمخاتلة والدماء، وبين هواء الكلمة السّريّة التي رماها ساحرُنا «**المُغْرَبيّ**» في بئر زماننا المُغَرَّب، بلا رواةٍ ودعاةٍ يحملون صَخْرةَ الأمّة حتى النهاية.

وبقلمٍ سيِّدٍ يكتب سالم حمّيش، من وراء عيون السلاطين المعاصرين، عن «صخرة العقل العربي»، متجاوزاً ما ذهبتْ إليها الخنساءُ في رثاءِ «صخرٍ» ها ما قبلَ الإسلام ـ الذي كانت «تأتمّ الهُداةُ به» ـ، وما ذهب إليه أمين معلوف في رثاء صخره اللبناني الذي شهد «طانيوس» بداياتِ تفتّته في القرن التاسع عشر، عصرِ المقاطعجيّ العثمانيّ واللبنانيّ معاً. وما كان لفيلسوفنا الروائي أنْ يقاربَ الصَّخْرَ الخلدونيَّ، المتروكَ في صحرائنا الفكرية والمعرفية، شاهداً على قوّة العقل العربي حين يغامر ويخاطر بذاته على حدّ السيفِ والريشة، لو لم يتمثّلْ ساحرَ العرب حين يعقلون، وهو يحملُ صخرته، بل صخورَنا الدائمة، خلافاً لسيزيف القديم، المحكوم بجبرية منزلته بين وادي الظلمات وجبل الرؤية حيث لا تثبتُ إلاّ القدَمُ الأقوى والأحوى للعقلِ في مجلاه الأرفع.

العلاّمة ـ كما يراه سالم حمّيش ـ هو صخرة الأجيال العربية المتمادية في صحراء ذهولها وسجون انكسارها الداخلي، الذاتي، شَرْوى قلمٍ يكسرُ نفسَه معترضاً على ما يكتبُ مدادُه نِفاقاً ـ أيْ بلا عقل ـ، وشيمةَ جسدٍ تحكمه جبريّةُ منزلته بين «فَرْجٍ وفَمٍ» كما انصلب الإنسان العربي في عصْر أبي العلاء المعرّي، وما زال مصلوباً، رافعاً يديه، خافضاً صوته، يتناجى تاركاً الأمر للمقدور.

وحدَه ساحرُنا المغربي، الذي حملَ صخرته العقلية والوجدانية والقرآنيّة، من أقصى قلبنا المغربيّ الى قِيعَةِ مهدِنا القومي والإسلامي ما بين مصر والشام والجزيرة العربية، لم يترك سيفَ السلطة ولا مالها يسجنان قلمَه خارج محبرة عقله اللاهب. وبدلاً من الانكسار اعتراضاً أو زَهَقاً

سالم حَمّيش: **العلاّمة** (بيروت: دار الآداب، ١٩٩٧).

ورهَباً، اعتلى صهوةَ جوادِهِ ـ جسدِه، سيِّداً عربياً، باحثاً عن غنى ذاته في أصله العقلي، لا في صخرة أوثانِ محيطه وعصره وعمره.

*

تقول أسطورة الساحر المغربي الشعبية، التي لم يروِها سالمُنا، إنّ ساحراً رأى في منامه صخرةً في بلاد المشرق، وإنّ فيها كنزاً فوق كل الكنوز؛ فخرج من زمانه إلى زمانٍ آخر بقوّة المُسَافَرة الروحية الواعية، وشَهَرَ سيفه المعرفي. وحين اهتدى إلى صخرته المكنوزة، وجدها مطمورةً في بئر القوم؛ فاستنهضها إلى الشّمْس، وأزال ما علقَ بها من شوائب ورماد أجيال وأقوال. وحين لذعتها شمسُ العقلِ المغربي، بانَ كلامُ الملغوز التاريخي العربي: «اقلبْني أغْنِكَ». وهذا ما أدركه مبكّراً ابنُ خلدون من خلال الانقلابية السياسية، المناهضة للانقلابية أو الرياسة العلميّة. فأعانه ربُّه وعقلُه على قلبها بعدَ معاناةٍ حميمة، وراح يجلو الوجه الآخر لمرآةِ صخرته، إلى أنْ سطع المكتوبُ بحيلةِ مَنْ لا حيلةَ لهم سوى «مَكْرِ الليل والنهار» ـ أي مكر التاريخ في قراءتنا لفجر القرآن ـ، فقرأ وحدَه: «قلبتني فضحكتُ منكَ»، أي كذبتُ عليك.

*

ولكنَّ الساحر المغربي هذا، تفرَّد في مغامرته إلى ما بعد الصّخرة المقلوبة وَجْهاً وَقَفًا، فلم يندهش مما رأى، ولم ينسحرْ بما قَلَبَ. إنه خُلدونيّ يَعي ما تعني تسميتُه: الخُلْدُ في المنتهى، لا في المبتدإ الإخباري. وعلى غرار أجدادنا الكبار في بادية العقل، قرّر ساحرُنا، فيلسوفُنا اللامرئي، كَسْرَ صخرة أوهامه. لم يقدّسها، لم يحملها من قاعِ وادٍ إلى مرقاةٍ جبلية، لم يربطها باسمٍ دنيوي أو لادنيوي، لم يَبكها، لم يربط نفسه بها. الخلدوني، وحدَه، كسرها. وفي خُلْدِها وجدَ كنزَه الذي لا يوصف، والذي يُسِرُّ من يراه، خلافاً للسيّاف «مسرور» الذي كان يزدادُ اكتئاباً وقلَقاً على مآلِه، كلما غاص في بئر الرؤوس المقطوعة بأمر من سلطانٍ أعمى. هذا الساحر المغربيّ، ما فوق مسرور السيّاف، وما فوق مالك السيوف، هو النموذج العقلي العربي، المقدودُ من صَخْر الأصل، الذاهبُ الى ينابيعه كينبوع، لا كدمعةٍ، ولا كقطرة دمٍ فاسدة. إنّه مفتاح شخصيّة «العلاّمة» التي يجدّد سالم حمّيش أرزتها العقلانية، في رواية نهضوية، تاريخيّة من الداخل؛ تؤسس لنهضةٍ ثقافيةٍ عربيّة، يبادرُها صَفْوَةٌ، ويسهو عنه الأغلبون، فيما يحاول «الغالبون»، بل المغلوبون المتصخرون في سجون سلطانهم، أنْ يعيدوها «صَخْرةً» صمّاء، أو «كتيبة خرساء»، مرّة أخرى.

*

سالم حمّيش، نقرأه من بعيد بموضوعية عقلٍ صفا خارج صخرةِ أيّ سلطان، وتألّقَ حَمِشاً أيْ مكاسراً ومهاجماً من على ذروةِ شمسٍ لا يخشاها إلاّ ذوو الرؤوس الشمعيّة، وذوو القيود المنفعيّة ـ باسم ثقافة ميتة أو شعائرية جنائزية اختلط فيها الميتُ والحيّ، والمقتول والقاتل، والمنهزم والمنتصر. نقرأه بألم العقل ذاته وهو يأخذنا إلى قمة علمنا التاريخي، التي لا تُرى إلاّ من بعيد أيضاً.

وعلى مدى ثلاثة مشاهد روائيّة، يخطفنا سالمُنا من قاع بئرنا المشرقية الآسنة، هذه الأزمان، كما خَطَفَنا سلفُه الساحرُ المغربيُّ، الخلدوني، إلى قراءة فاردة لروح عصرِنا، لمعناهُ ومعاناته. كأنّ روح العلاّمة نفسه تتمادى على ريشة حِمِّيش في نبشنا من قبورنا المصطنعة، وتسعى ككل حيّةٍ حقيقيّة إلى دفعنا في اتجاه شمسٍ أخرى، سيرةٍ أخرى، صبغةٍ أخرى، غير ما تناهى إليه إنسانُنا العربي المحبوسة أنفاسه في صخرة تنتظر مجدداً من يكسرها بحماشة.

فهل نجح سالمُنا الفيلسوف الروائي في كتابة تاريخ آخر، موازٍ، بلا ظلال، لخلدونيّتنا القديمة المقيمة؟ هذا ما نبتدرُه الآن بالفهم، وما سيجيبُ عنه عربُ القرن الحادي والعشرين، وما بعده.

هل لغةُ سالم حمّيش الراقية جداً حتى جلالِ اللفظ العربي، موصِلةٌ للرسالة المبتغاة؟ لا، الآن؛ نعم، ربما غداً. إنما كتابته هذه تأسيسية. وعلى غرار كل مؤسس نهضوي في الثقافة، تصطفيه قلّةُ العقلاء، في عصرٍ كَثُرَ فيه العلمُ وندرَ العلماءُ الخلدونيّون؛ وتناهضه كثرةٌ متحالفة صمتاً مع أوهام السلطة، المناضلة لأجل تصخيرنا لصالح أوهام غريبة، أجنبية، تمانع قيامَنا من أبار غفوتنا، وتستسهلُ وطأنا بمناسمِ «حيوانها الاستهلاكي»، المقيَّد بسلاسل «حيوان نووي»، أين منهما ديناصور العصور البائدة؟

لا وهمَ أنّ مجاز الخيال الحمّيشي محكوم، بدوره، بجبريّة ملفظه ومكتوبه؛ الأمر الذي نخشى ـ من ورائه ـ ألاّ يترك مجالاً كافياً لرؤية عينيّة، أو لقراءةٍ عربيّة واسعة. وهذا يتوقّف أيضاً على منزلةِ النّقد العربي المعاصر، التراخي، المتكاسل، وعلى منزلة الإعلام العربي، السلطويِّ بنسبة عامة، والمتغرّبِ عن واقعنا الثقافي بنسبة خاصة، والمسكونِ بأوهام

«الانترنيت» الغربي.

ومع ذلك يتجاسرُ ناشرٌ شرقي، كسرَ بدوره صخرته، واعتمر قبلنا عمامةَ الكتابة الحرّة، فكان شيخَنا الآخر، دون أن ندري. ومن شيخ الى شيخ آخر، يكبرُ جبلُ الشّيخ (حرمون جبل عامل)، المحتلُّ بعضُه، المقاومُ معظمُه، المتحرّرُ صخره، وتبرز رواية **العلاّمة** بصيغتها الحمّيشية المشرقة كسنا فجرٍ واعد، يلثمها فينطبع بها الضوءُ الآخر، فيما ظلال أمواتٍ يأخذها هولاكو العصر الصهيوني إلى مقبرة تطبيعه، على سرير «بروكرست» الأميركي.

«العلاّمةُ» طابعُ عصره، أراده سالم حمّيش طابعَ عصرنا أيضاً. فهل سيكون له، ولنا، ذلك؟

*

لقد بدأ أدبُنا الرّوائي، بعد سهيل إدريس في **الخندق الغميق**، ينهض من بئرنا إلى عقلنا، فَرُحْنا نسمع ونرى ونعقل بآذانٍ وعيون وأفئدة جديدة. الحريّة مُناخ، ولبنان هواءٌ آخر، ولو على تلويث، لكنّه هواءُ الحيّ الذي لا يموتُ في الرّوح. وها هي مسيرةُ هذا النمط من الأدب الرّوائي، الذاهب إلى الحرية بحرية، تتأرّزُ في أقلامٍ سنديانيّة، هي الوجه الآخر لمقاومة العقل العربي الخلدوني. مسيرة نصفِ قرن، بدأها الشّيْخُ الجديد، وتبارت في مضاميرها أراسيلُ الرُّواة الكبار، جيلاً بعد جيل: من **أولاد حارتنا** المحفوظيّة، إلى **ياسمين** غادة السمّان المتمادي في فوحه الدمشقي الإنساني، مروراً بـ **صخرة** لبنان الآخر على لسان أمين معلوف، وصولاً إلى ما فاضَ من الطّيب صالح، وعبد الرحمن منيف، **وسفينة** جبرا إبراهيم جبرا، وما اكتنز في مجرّة أحلام مستغانمي من **ذاكرة الجسد** التي تستحق إضاءةً خاصّة بها؛ ابتداءً، نعم ابتداءً، بما روى سالم حمّيش في **العلاّمة**.

نهضة كبرى، خارج الصّخرة، والمخاتلة السياسية والحيلة المركنتيلية، وبعيداً من مامون Mammon إله المال، ومن قيصر الجنون الصهيوني ـ الأميركي. نهضةُ أقلامٍ، شرقاً وغرباً، تعاود سيرةَ العقل الخلدوني، العربي، الأولى، ولكنْ على أوراق متنوعة، وبأسماء تدل في النهاية على اسم «النهوض العربي» المشترك، على الرغم مما فُرِضَ على عرب القرن العشرين من قيود المعاركة، ومن إخفاء للمشاركة الثقافية العميقة.

*

سالم حمّيش يسلّط في روايته ضوءاً خلدونياً على بعض الرؤوس الشمعية، القديمة، فنرى ـ من خلال السيرة الخلدونية الأولى ـ رؤوساً شمعية معاصرة، لن تقوى هي الأخرى على ما يصنع عربُ العقلِ من حرية كلمة.

بيروت

ادعموا

الآداب

باشتراكم المباشر فيها!

الآداب أكثر حداثة... أشد التزاما!